فاروق شوشة
ينفجر الوقت
شعر
مكتبة نوميديا

ينفجر الوقت

شعر

شوشة، فاروق

ينفجر الوقت: شعر/ فاروق شوشة . ـ ط1.ـ

القاهرة :الدار المصرية اللبنانية ، 2014.

104 ص ؛ 21 سم.

تدمك : 7 - 874 - 427 - 977 - 978

1- الشعر العربي - تاريخ - العصر الحديث.

2- الشعر العربي - دواوين وقصائد.

أ - العنوان 811.9

رقم الإيداع : 24199 / 2012

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ربيع أول 1435 هـ يناير 2014 م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية ، ولا يجوز ،

بأي صورة من الصور ، التوصيل ، المباشر أو غير المباشر ، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف ، أو نسخه ، أو تصويره ، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه ، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

فاروق شوشة

ينفجر الوقت

شعر

إلى زمنٍ قادمٍ

نحلم بهِ

وننتظره

ينفجر الوقت

ينفجرُ الوقتُ،

فتصبح كلُّ الساعات شظايا

أتحسَّسُ صدري

وألاحقُ بعض بصيص الضوءِ

أجوسُ دروبًا ملأى بالقهر

وطافحةً بصنوف المقتْ

أتطلّعُ،

هل هذا العبء الرازحُ غيمٌ يعبرُ؟

أم جثمان نهارٍ مرَّ؟
ولم يدفنْه الليلُ القادمُ بعْد!
يا مَنْ يأتي..
يحنو،
ويواجهُ بعض سؤال الصمتْ
عجِّلْ بيديك لتأخذَ بي
أشتاق مدينة أيامي
هل ترجعُ لي؟
إني من فوق البرج أنادي
يسمعني سكان الأدوارِ العليا،
والدّنيا
تنفتح نوافذهم تسأل عن هذا الصائح في البرية
- لا يدري حيٌّ فيها أم ميْت -

يشتاقُ لوجه مدينتهِ المسلوبْ

الغارقِ في طوفان عذاباتِ الرؤيا

يسأل عنه الأقصى والأدنى

العابرَ،

والضاربَ فيها عكازَ إقامته

يُفزعه أنّ الناس جميعًا صرعى

شربوا من خمرتها بعض تلوّثها

وفسادَ أماكنها

ومضوْا

لا يدرون حقيقة ما تعنيه لهم

أو يعنون لها

يا مَنْ يأتي

ينقذني من هذا الأسنِ الطافحْ

يُرجعُ لي وجه مدينتيَ النديان

انفجر الوقتُ

وليل الكافر حان وبانْ

وتطاول شيطانُ الظُّلْمة

فتْكُ السلطانِ،

ورُعْب الأعوانْ

عشوائياتٌ تبحث عن مأوى

في زمن مجنونٍ جامح

ووجوهٍ تطمسها الأحزان

وفضاءٍ يبحث عن جدران

حتى ينتصب عمودُ البَيْت!

* * *

أحلمُ أن أسير فيكِ يا مدينتي

يدي تطوّق المساء في برودة الخريف

صدري ينوء بالأحلام،

في دَوَّامة العطور والألوان

وخطوتي تنداحُ في الأزقة

لتلتقي بغيرها في زحمة الميدانْ

ويصبح الجميع واحدًا

أصواتهم عفيَّةٌ كأنها ترنيمة فَتِيَّة

تضجُّ بالهتاف والألحان

أحلمُ أن أسير فيكِ يا مدينتي

منطلقًا أبحثُ عن صَبِيَّة

في قاع عينيْها شعاعٌ قادمٌ

من عالم وريف
ينشرُ فوقي ظُلّة الحنان
يشدّني إلى مرافئ الأمان
مستسلمًا لضوئه الشفيف
أحلم أن أسير فيكِ يا مدينتي
مستوحدًا حينًا
وحينًا باحثًا عن صحبةٍ،
وعن وليفْ
وعن غرامٍ عابرٍ، حينًا
وحينًا.. عن مدًى
تمتدُّ فيه نشوةُ الإنسانِ بالإنسان
وحين نلتقي..

تفصلنا المناكبُ المندفعة

نوشك أن نتوه في الزحام

لكنَّ لحنكِ الشجيَّ يا مدينتي

يُعيدنا للمِشية المُوقَّعة

يضمُّنا معًا رصيفْ!

* * *

ينفجرُ الوقتُ،

تصير الدنيا أشلاءً متناثرةً،

وزجاجَ مرايا تتكسَّرُ في كلّ مكان

لا يملكُ وجهٌ أن ينظر وجْهه

ففُجاءةُ هذا الحدث الصاخبِ كالبركان

تعقدُ ألسنةً،

وعقولًا،

وخيولًا تبحث عن فرسانْ

وزمانًا ليس كأيِّ زمان

فانتفضوا الآن..

إن شئتم عيْشًا لا يتشبث بالأكفان

وغدًا مختلفًا

لا يبتدئ بلفظة «كان»

لا يُدخلكم سرداب الموتْ!

* * *

الغـــربـان

(إلى العقاد: صاحب «هدية الكروان»
ومحمود حسن إسماعيل: صاحب «راهب النخيل»)

هل يسمعون تناعق الغربانِ؟
من بعد ما ولّى صدى الكروانِ!
رحل الجمال عن الربوع، وعشّشت
فـوق الــذرى أُمــمٌ من العقبــانِ
وارتَــجّ بـالـوادي نعيب صارخ
متــدافـع مــن شــدّة الغليــانِ

والأفـقُ وشّحه السواد، فلا يُرى
في الأرض غير ستائرِ الأحـزانِ
مـا للفصول تـبـدَّلـت أوقاتها
وكـأنـهـا يئست مـن الـــدورانِ
أَسِنتْ، وأدركها الفسادُ، كأنما
هـي جيفةٌ نُـثـرتْ بكلِّ مكانِ
أحوالُهَا اختلطَتْ، فكلُّ زمانها
نـكـدٌ، ووجـهـاهـا لـنـا سـيّـانِ
هجم الوباء على العبادِ، فأصبحوا
وكـأنـهـم زُمـــرٌ مـن الـجـرذانِ
وطغى الشقاء على الوجوه فأصبحت
أطـــلالَ عهدٍ بـــادَ منذُ زمـــانِ!

يسترجعون وقد تبدَّل حالهم

أحلامَ عيشٍ من دَدٍ وأمانِ!

* * *

شيخٌ من الزمن المُخبّل ساخرُ؟

أم صوتُ نحسٍ في البرية كافرُ؟

أم راهب فوق النخيل، تردّدتْ

نَعَباتُه، فارتاع منها شاعرُ؟

سمّاك شيخًا للزمان، وناسكا

أبدًا تغادي فجرهُ وتباكرُ

وتصبُّ في أسماعه صور الأسى

وكأنها موتٌ دِهاقٌ دائرُ

والنـاس لا يـدرون سـرَّكَ، كلَّمـا
قاربْتَهـم خطْـوًا، وأنـت تكـابرُ
يتشـــاءمون إذا طلعْـتَ عليهمـو
وانهـــار بينهمـــو وبينـك ســـاترُ
أَو لـم يَـروْكَ مـذكِّـرًا بفَنـائهـم
وكـــأنَّ صـوتـك جثـة ومقـابرُ؟
ويُـردِّدون متى الخلاص؟ وأنت في
واديهمـــو عصـفٌ ومـوجٌ هـادرُ
وتوهّمـــوا مـن غَفْلـــةٍ وحمـاقةٍ
أن الظـلام - وقـد تحـرّش - عابـرُ
وإذا النـــذيـرُ بـأنّ لعنتـك التـي
حلّـت عليهـم حـظُّ قـومٍ عـاثرُ

ونصيبُهم من عيْشهم في يومهم
مقتٌ وإذلالٌ وعسْفٌ جائرُ
لم يبْقَ إلا أن يثوروا، مثلما
ثاروا، ودارت بالرقاب دوائرُ!

* * *

هل يسمعون تناعق الغربانِ؟
هذا النذيرُ يصبُّ في الآذانِ

حُممًا،
ويُغري الناس أن يتشبثوا
بالإفْكِ والبهتانِ،
هاهم أولئك، يكذبونَ
كمثْلِ ما يتنفسونَ،
ويُمعنونَ بكلِّ كيدٍ،

واصـــطـــنـــاع بـــــراءةٍ
ونفوسهم ســـوداءُ كالغربانِ
والـــوعـــدُ فـــي أفـواهـهـم
زورٌ
ومَكْذبةٌ
وشيطانيةٌ،
ونـقـيـعُ سُـــمِّ الأفـعـوانِ
وحـديـثـهـم لـلـنـاسِ
لا يـشـفـي الـغـلـيـلَ،
ولا يـبـلُّ صـدًى لـظـمـآنٍ،
ولا يـنـجـاب إلا عـن مزيد
مـن ضـلالات الـقـلـوبِ
ومـن تـكـاذيـب الـلـسـانِ
فـأيـن مـن نَـعـقـاتـهـم

تَسْبيحةُ الكروانِ؟
ونقاءُ وجهِ الفجرِ
يسطع في المدينةِ
مثل أضواء الهداية،
في قلوب عشيرة الإيمانِ
وتناغم الألحان في أوتارِ جمْع الطَّيْرِ
حينَ يهمُّ بالطيرانِ
وفضاؤه المسحورُ
من ألقٍ
ومن حريةٍ،
ومدًى شفيفٌ
من عذوبة منطق وبيانِ!

* * *

الوالغـــون بجيفـــةٍ معـروضـةِ

يتهافتـــون تهـــافـــتَ الـــذؤبـانِ

جنحوا إلى وأْد الجمال، فأصبحت

أيـامـهـم نُـكْـرًا، وســوءَ أوانِ

واستعذبوا نهْشَ الربيع، فروحهُ

جفّت، ودبَّ الموتُ في العيدانِ

لكنمـــا الآتـــي يـلاحـقُ دوره

مُستخلصا فرجًا مـن الهذيـانِ

فلعـلَّ فـي الـدَّوْحِ القريـبِ، وطيْرِهِ

شـدْوًا يمـوج بقـادم الألحـانِ!

* * *

لحنٌ يحرِّك في الضمائرِ
ثـورةَ المشـغول بالأنقى
وعشْـقِ النفـسِ للأبقـى
وتـوْقِ الـروحِ للأَتْقـى
ويُسـقطُ لعنـةَ الغربـانِ!

* * *

هيَ لي

رأيتكِ

لا تشبهين الذين توالت مواكبهم،

في طريقي،

ومرُّوا

جميع الذين رأيتُ

فرادى ومجتمعين

يغارون منكِ،

تمنّوْا لو انَّكِ تعطينهم بعض ودٍّ

وبعض اهتمام،

ليشعر كلُّ الرجال بأنك واحدة العصر،

ليست تجاريكِ

فيما تُفيضين

أية واحدة من هوانم هذا الزمان،

لأنك - لم يعرفوا بعْدُ -

مصنوعة من نسيج مغاير،

ومن طينةٍ غير طينتهم،

ومن ألقٍ قد تشكّل أيقونةً للجمال،

وفاتنةً تسْتبي بخطورتها كلَّ عين،

وتسرجُ كلَّ خيال!

* * *

تعاليْ إلى جانبي،
إنّ قربكِ مني يُفجّر نهر عواطفَ،
عاطفة للأمومة،
عاطفةٍ للتملّكِ،
عاطفةٍ لافتراسكِ،
عاطفةٍ للتلامسِ عَبْرَ مسامكِ،
عاطفة لاحتواءِ الرُّقيِّ الذي
تتدحرجُ حبّاتُه منكِ،
عاطفةٍ لاكتناه فضائك
والكشف عمّا تضمّينه من كنوز
تعاليْ إلى جانبي،
إن طقْسَ البرودةِ يرحلُ عني،
وتشتعلُ الآن نيرانُ أوردتي،

والوجودُ يضيقُ يضيقُ،

لكي نتلاصق في قطعةٍ من سديم

ونعلن - من فرْط بهجتنا -

أننا بعْدَ لأْيٍ توحّد في نشوةٍ جسدانا،

وجاش بنا ما يداخلُ كلَّ الذي حالُهم مثلنا

من صفاءٍ وغبطة

ومن دهشةٍ أننا

برغم تطاول هذي السّنينَ العِجافِ

وغير العجافِ

نظلُّ معًا،

ونتوق معًا،

ونرتاح من وطأة الحادثات معا!

* * *

بربِّكِ،

هل كنتِ تنوين شيئا

يغايرُ هذا الذي قد تمَنَّيْتِ؟

هل كنتِ حاسمةً

حين كان قرارُكِ بالحبّ

مثْلَ قراريَ

يصنع لي قدرًا رائعا،

ويحلّق بي،

فإذا كلُّ شيء يطالعنا

ويرفرف من حولنا،

ونحن هنالك عبْرَ سماءٍ نطيرُ،

ويلتحم العاشقانِ كما التحم الكوكبانِ،

يضيئانِ،

يفترشان «الثريّا»،

وقد يزحفان إلى حيث ينبسط «المشترِي»،

فاردًا من جناحيه هذا البساط الوثير

الذي يتلاصق من فوقه هائمانِ،

حبيبانِ،

مستغرقانِ،

يذوبانِ،

يلتمسانِ من القمر المزدهي غلالة ضوء،

وبعض دثار

فيعطيهما ما يفيض،

وما يغمرُ الكون حولهما بالضياء الحنون،

كأنَّ له قلْبَ مُضْنًى رحيم!

* * *

كلؤلؤة البحر،

أنقى من البحر،

أطهر من ثبجِ اليمِّ أنتِ،

صُنعْتِ على غير سابقةٍ أو مثال.

وزانك إحساسُكِ المتفردُ

حين تصيرين قطرة طلٍّ تجوسُ على صدر وردة،

وخفقة عطرٍ تطير مع النسماتِ

إلى حيث يخفق قلب ويندى جبين

ومشهد شمسٍ تصيرُ جِنازتُها في الغروبِ

وداعَ حياةٍ وبَدْءَ رحيل

كياقوتةٍ أنتِ يسطع وجهُكِ،

حين نطالعه عند إشراق كلِّ صباح،

وتلمع عيناكِ

بالحبِّ والشوق

حين تُطلاّن من شرفة اليوم،

تحتضنانِ الزهور التي انتثرت

وتَماسكَ عنقودُها روضةً يانعة

أطيرُ إليكِ يُدافعني حُلُمٌ بازغٌ،

وأحملُ شوقًا بلون الليالي التي جمعتنا معا،

على فرحٍ نادرٍ،

وخبايا لقاء

وأُلقي برأسي على صدركِ المرمريِّ،

أُمرِّغ وجهيَ فيه،

وألمسُ جمرًا

جدائلهُ تتوزّعُ ملْءَ حناياي،

تُشْعلني،

وتُؤجّجُ نيرانها في دمي،

فأهتف من وجعٍ: أطفئيني!

* * *

لماذا، برغم السِّنين الطوالِ،

تُداخلني رعشةُ البدءِ

حين أعانقُ فيكِ اكتمال البهاءِ؟

لماذا التوتُّر والـجذبُ

والشدُّ واللهفةُ العارمة؟

لماذا أُحسُّ بأني أراكِ لأول مرة،

كأني أُحبُّ لأول مرة،

كأني أصارع في داخلي ظمأً وانجذابا،

وأفصحُ عن جذلٍ هائلٍ،

ولفْحِ جنونٍ،

وخفْقِ اضطراب؟

وأنتِ،

كما أنتِ دوْمًا،

جذوركِ راسخةٌ،

وسجاياكِ عيْنُ السّجايا التي

جعلتْني أردّدُ في دهشٍ ذات يوم بعيدٍ:

أراهنُ طيلة عمري عليها،

لأني وثقْتُ بها،

فهي مُتكئي،

وهي مُعتمدي،

إن وَنيتُ وخارت قواي،

وساقاي لا تقويان على حمل ثقْلي،

وظهريَ ناء

بما سوف يأتي به الزمن المستبدُّ،

أراني أردّد في ثقةٍ،

أتماسكُ حين أردّد في ثقةٍ: هيَ لي!

* * *

لديكِ فنونُ الحياة

تشرَّبْتها قطرةً قطرةً،

وأحكمْتِ منها الزمام،

فكلُّ أصابع كفَّيْكِ ممسكة بالخيوطِ،

وعارفةٌ بالمقام المناسبِ،

تعْزفُه في الأوان

فكيف لمثليَ أن يحتويكِ؟

وهل يُحتوى عالَم زاخر بالرؤى والمواقف

والهمسِ والصخب المستكنِّ

وبالحزنِ والفرح المتخبّط،

يبدو ويخبو،

ويأتي ويرحلُ،

طيْفًا يلوح،

ويمعنُ مستغرقًا في الخيال؟

لديكِ فنون الهوى والصدى والمدى،

وموهبة الوقت والزمن المستثارِ،

وإلْف الحياة التي

تتشكل فيكِ بكلّ المعاني

وكلِّ الصور

لديْكِ طرائقُ هذا الجنون الجميل،

فضاءاتُ هذا العُرامِ العتيِّ،

وحكمةُ إلفينِ،

يستبقان الدقائق،

خشية أن يهرب العمرُ

من قبل أن يصعدا القمة الباذخة

ويستشرفا نقطة

ليس يبلغُها أبدًا غيرُ هذيْن

يُطلاّن منها على برزخٍ

يعبرُ السالكون عليه،

إلى حيث مملكةُ العشقِ والتوق،

على ضفة منه

وجهُ النعيم المقيم،

وفي ضفةٍ منه

لفْح الشقاء المقيم.

سنقفز من فوقه،

حين يجذبنا عطرُ هذا الغرام الحميم،

ونغرقُ في لُجّة الياسمين،

بدأناهُ ثم انتشينا به،

ومضيْنا يراوحنا زهْوُنا،

ويدغدغنا في فضاء السديمِ

فهل أنتِ جاهزة كي نعود إليه،
إلى ضمّةٍ من لطائف هذا الزمان القديم؟

* * *

كبِرْنا؟
أجل
وقطعنا طريقًا من الورد والشوكِ،
والفرص المستحيلة
والفُرص الضائعة
ووحّدنا عَرقٌ في الليالي اغتسلْنا به،
وبيتٌ أوينا إليه،
وشرفته شاهدٌ
ذات يوم سيحكي الكثير
فنُدرك كم مرَّ من عمرنا!

فهل كان إلا التفاتة طرْفٍ

وغمضةَ عين؟

وهل كان وهما مرور السّنين،

وقد نقشت ما انقضى من عجائبنا

وانعقاد البداية

دون انتظارٍ لفكِّ الحصار؟

وها نحن عدنا صغارًا

كما البدءُ،

يُدهشنا نَزقٌ هائج،

ويعربدُ فينا مجونٌ خليعٌ،

وتحملنا نزوة جامحة

ولم يَهِنِ العزم فينا،

هنالك ترتجّ أعماقنا خشيةً،

ويضيق بنا أفقٌ

في حناياه نلتمسُ الطعم والرائحة!

سأُقسمُ دَومًا بعينيكِ

لـمّا أزل مثلما كنتُ،

مازلتِ لي شرفَ العمر،

رؤياه،

حاضرهُ، ونهاياته،

والطريق الذي لا أفارقهُ،

أجيءُ إليه وأُسقط أثقاليَ الفادحة

فها حدِّقي فيَّ يا كم أُحدّقُ فيكِ،

وهيا، نرى

مِلْءَ وجهي ووجْهِكْ

أخاديدَ من زمنٍ قد تقضّى،

تدوسُ سنابكُ للوقت عُمرَيْنا،

فهيا امسحي بعض هذا

الذي كم نعاني،

وقولي لهم:

مثْلُ هذا الهوى، وهذي الليالي،

تُعشّشُ فينا،

ونسكن فيها،

مدى عُمرنا المستمرِّ،

وليست - كما قد يظنّ الذي ليس يدري بنا،

ولا هو منّا -

رؤًى سانحة!

* * *

أغنية على النيل

سأفتح نافذتي
وأطالع وجهكِ،
يأتي مع النيل والشمسِ،
يُبحر صوب الجنوبِ،
أُرافقه، وأنا ذائبٌ في المدى السلسبيلْ
سيأخذني نحو أهلي،
ونحو صباي، وكينونتي،
في ظلال النخيلْ
وأنتِ معي، فانظري كيف كنتُ

وكانت خُطايَ،

وكانت طفولة هذا الزمان الجميلْ

وكيف تهدّل يومي عن الأمسِ،

كيف التجاعيدُ تزحفُ فيَّ،

ولم يبْقَ إلا القليلْ

* * *

أمدُّ يدي،

فأُلامسُ بعض التصاوير،

خضرةَ لونٍ، وسحْرَ فضاءْ

أطالع مملكتي،

ويصافح سمعي هديلُ يمام، ورجْعُ غناء

ونايٌ شجيٌّ، يثير حنين السّواقي

تشاركهُ رجْع أنّاته في حياء
ونجلسُ متّكئيْن إلى جذع زيتونةٍ،
هَرِمت، وهي تقرأ سفْر السماء
وعُشٍّ من القشِّ،
كان يزيِّن أغصانها،
وهو يحملني ذائبًا في المساء
هنالك، أصغيتُ للطير، والكونِ
واتَّسعت رئتي،
وانطلقتُ وراء حروف الهجاءْ!

* * *

سيتَّسع الوقتُ،
لا تُسرعي
فلديكِ من العمر ما يحتويك لألف سؤالْ

أُحدّث عن صاحبي الطفلِ،
يخطو ويمرح، مفتتحا جلوات الخيالْ
وعن صاحبي، عائدًا بكراريسه، وبريشتهِ،
الوجودُ يشاغلهُ، والحياةُ احتمالْ
ينوءُ بها فوق ظهرٍ ضئيلٍ،
تحمّل عبْءَ الدروسِ،
وعبْءَ المعاني الثقال
يخوّض في الطين عند الشتاءِ
وينشُدُ في الصيف معنى الظلالْ!

* * *

على النيل، سيري بوجهكِ،
هذا الذي كم أضاء حياتي

وصيَّرني عاشقًا مستهاما،
أُهدهد حُلميَ في عُمق ذاتي
تعاليْ مع الموج مُتَّجِهًا للشمالِ،
قد اغرورق الأفْقُ،
واتسعت ذكرياتي
وعانقني منه سحرٌ تحدَّر من عالم الخلدِ،
تُنشدهُ أغنياتي
ووجهُكِ،
يبقى المنارَ الذي بدَّد الليلَ،
فانسحقت ظلماتي!

.....

لوجهكِ، دومًا أُغنِّي
وأعشقُ فيه الصفاءَ الذي لا يُحدّ

تخلّص من طينةٍ عُتِّقتْ

فكانت نساءً، تجمّع فيهنَّ شوك وورد

وصُفِّيَ من خلْطةٍ شابها

عناءٌ ويأسٌ وصدٌّ وردّ

ولم يبقَ إلا نسيمُ القرى

يُعاودُنا، ساكبًا في العيون

عُرامَ الليالي، وسرَّ الأبدْ

ويبقى لنا النيل،

يحمل عُمريْنِ،

سارا لمحرابهِ دون وعْد

سمعْنا به هتفاتِ الضلوعِ

وذقنا به لُغةً للجسد!

* * *

ستبقيْن ليلايَ،

يعشقها قيْسُها،

ويُغنِّي لها منذ صار فتاها

سأخلعُ بُرْدًا يُغطّيكِ عالمهُ البدويُّ،

وأُبعد عنكِ أوابدهُ، والشِّياها

وأُغرقُ وجهكِ في النيلِ،

وهو يباركُ سمْتكِ،

يرعاكِ في كلِّ صوبٍ،

ويُدنيك زاويةً واتجاها

ويحتضنُ الفتنةَ المشتهاةَ،

يطامن من صهدها إذ تناهى

أسيرُ إليكِ بحلم الرجالِ،

وأرجع منتشيا يتباهى

على النيل، يجمعنا حُلْمُنا

وفي شاطئيْه خفضنا الجباها

نغني له،

ويغني لنا،

ويمزجنا عندما نتماهى

ونسأله ما الذي يستبيهِ

بشيخوخةٍ، لا يعاني سواها

هنالك، يرفعُ من حاجبيْه،

ويسخرُ من بلدةٍ قد أتاها!

* * *

سأغنِّي لك ما عشتُ،

غنائي بعض حزني!

فأنا في داخلي أنزف أيامي،

وأستعذب في الوحشة لحني

لم أعد أعرف هل أبكي على فقْدِ أحبائي

- وقد كانوا مصابيح حياتي -

أم أغنِّي

ها أنا أبحث في الظلمة عن قطرة ضوءٍ

أرتجيها - يا إلهي - فأعنِّي

ليس لي غيركِ، لا غيرُكِ أشتاقُ إليه،

فإذا الدنيا لديه،

وأراه نور عيني!

* * *

سوانح ريفية

توقَّفْ..

فهذي هي القريةُ الهاجعة

هي القدرُ الحاكمُ المستبدُّ

هي الدورة المستكنَّةُ فينا

إذا ما أطلَّ الصباحُ البئيسُ

بأثقالهِ،

وحين يعودُ المساءُ التعيسُ

بأحزانه،

وبأغلالهِ،

فنرحلُ عند انسكابِ الظلامِ

ونَشْرعُ في فضْحِ ما يتخفّى

وراء الغيابِ،

وما يتشكّلُ من كائناتِ الخرافةِ

وهي تُلاحقنا في المدى المتلاشي

وترصدُنا في انحناءاتِ هذا المسارِ البهيمْ

وفي سطْوة الظلمةِ الطالعة

كأنَّ فضاءً بأوزارهِ يشتعلْ

وهمًّا بأثقاله، تحت وطْء الخُطى، ينتقلْ

وثَمَّ دخانٌ يَصدُّ العيونَ...

ولا مدخنة!

وقريتنا تشتهي عنبَ الشامِ

لكنها تكتفي بالكلامِ!

وهذا هو النهرُ منكسرٌ في الغيابِ

وفي أبعد البُعْدِ

لم يبْقَ مما يلوحُ

سوى مئذنة!

وبين ثنايا الظلال التي تترامى

كأغصانِ أُمِّ الشعورِ

تدلّت إلى حافة الماءِ

مثل شياطينَ عجْلى تُلاحقنا

ولها أوجهٌ جائعة!

حواديتُ ممكنةٌ

ودهاليز مُرعبةٌ

وأنين نساءٍ عرايا

يزلزلُنا من وراء الحوائطِ
ينداح بالقرب منا
وثَمَّ نباحٌ يؤكدُ
أن الحواجز آمنةٌ
والدروب مواتيةٌ
والخطى،
- حين تملؤنا الرغباتُ الحبيسةُ
تشعل من وجدنا للصبايا -
هنالك..
لـمَّا تعدْ ممكنة!

* * *

وثمَّ قطارٌ يمرُّ
وصافرةٌ تترنَّحُ

فوق القضيب الذي قد تهالكَ

وهي تدغدغُ أحلامَنا بالسّفر

وعند المحطة راح يهدّئُ

نُسرع نحن الصغار

لكي نعبر الترعة الفاصلة

ونمضي على جسرها المتداعي

ونقفز مثل الأرانب في العربات البليدة

ليمضي بنا

حيث وجه المدينةِ، والمدرسة

ودار الزمانُ بنا

حين عُدنا

فلمّا يعدْ للقطار مكانٌ

ولا بقيت تُرعة كان كورنيشُها الـمُتوهّمُ

شاطئنا

حين نمضي لرحلتنا في المساء

ونزحم مقهى يُطلُّ عليها

وعالـمُنا هو هذا اللقاء

سنقرأُ يومًا

ونلعبُ بالنَّرْدِ يومًا

ويمتدُّ حبلُ السَّهر

نجوعُ،

فنسطو على ما تجودُ به الأرضُ من حولنا

غُزاةً من الجنِّ

نمعنُ في نزقٍ، واشتهاءْ

لعلّ الذي قد حصدناهُ

يُسكتُ جوع البطونِ

ويجعلنا مرّةً سعداء

ولم نكُ ندري ونحن نمارسُ فتكْتَنا

الغادرة

بأنّ الذي قد حصدنا من الأرض

يقضي على حُلمِ أصحابها الأشقياءْ

إذا ما تكشّف وجه النهار

وكلُّ الثمار التي أنضجتْها هباءْ!

* * *

وقريتنا

تتزاحمُ فيها المقابرُ

وهي تلاصق جُدرانَ هذي البيوتِ
تُطلُّ نوافذُها
لا ترى غير قافلة الموتِ
رائحةً، غادية
ولـمّا يزل حالُها من قديم
تجاورُ وجه الممات ووجه الحياة
ومن عجبٍ
أن ركب الصغار الذين أتوْا بعدنا
يعيشون أيامهم
لا يرون الأمور كما كان يشغلُنا
زمنٌ فائتٌ
وحياة مراوغةٌ
حين كان طريق المقابر يملؤنا بالفزع

فصار طريقًا للهو الشباب
وأُنسهمو بفنون الـمُتع
وكان الزمانُ زمانًا لنا
ولكنه الآن ضاق كثيرًا
وما عاد يومًا
لنا يتّسع!

* * *

وها أنتَ تمضي،
تلاحقك القرية الزاحفة
تراها حواليك في القاهرة
بقلب الميادين،
خلف البيوت،
أمام الدكاكين،

ملْءَ الشوارع،
والأرصفة!
تجرجرُ أشياءها التالفة
وتعرض سوأتها للجميع
وتمعن في البغي والعهر،
تهزأ بالباحثين عن الزمن المتواري
وراء ستائر جدرانها
حين كان الزمان جميلا
وكان الكلام جميلا
وكان التحَضُّر آيتها الباذخة
تريَّفت القاهرة
فصارت وكلُّ الكفور سواء
بفضل طواغيتها

وأشاوسها
ومغتصبي كلّ ألوان زينتها
ومجالس عشاقها
ومفاتن بهجتها
بفضل تحلّل أعضائها واحدًا واحدا
وتفسّخ حكامها جاهلاً بعد آخرْ
وطمس معالمها في العراء!
وها هي تمضي بنا
تُجرجرنا خبْطَ عشواءَ
نحو مزيد من القبح والفاحشة
تلاحقها أعينٌ واجفة
وتلعنُها أنفسٌ عازفة
متى تُقبلُ الكاشفة؟

* * *

سيرينادا مصرية

هو :

هـي الشـمسُ توشـكُ أن تسـتفيقَ
فهيـا إلـى النهـر نمضـي معـا
ونسـبق نـور الصبـاح خِفافًـا
وننتظـرُ الشـمسَ أن تطلُعـا
ونُلقـي إلـى النيـل عِبْئًـا ثقيـلا
تحمّلـهُ عُمرنـا مُـذْ وَعَـى
وأهمـسُ فـي سـمعهِ: قـد أتيْنـا
غرامًـا تمطّـى، وشـوقًا سـعى
تـعـالـيْ يُـطـهـرنـا مـاؤهُ
ويُنبـتُ فينـا هـوًى مُتْرَعَـا

سألمِسهُ أولاً كي يليـنَ
ويُسلسَ من مائهِ طيّعا

* * *

هي:

وأنتَ حبيبي، سأتبعُ خَطْوكَ
طرْ بي، وحلِّقْ، فإني وراءكْ
رأيتُ بعينيْكَ عُمري الجديدَ
وفي عُمْقِ صحوي سمعتُ نداءَكْ
فخُذْ بيدي، كي نطيرَ معًا
فإنَّ سمائيَ صارتْ سماءَكْ
وننظُرَ أيَّ غدٍ سوف يأتي
نقول له: كم نريدُ احتواءَكْ
يجيءُ إلينا بما نشْتهيهِ

فنهتفُ: يا كـمْ نـودُّ اشتهاءكْ
سعينا إلـيـكَ بـمـا نستطيعُ
فهل يا تُرى سوف نُبْلى بلاءَكْ؟

* * *

هو:

أرى النيلَ يشهدُ مَـنْ قاتِلوهُ
ويـــذرف دمـعًـا غـزيـرًا جـرى!
فـمـاذا جـرى؟ كـم جنيْنا عليه
وكـيـف ارتضينا لـه مـا يُـرى؟
وهـــل يستعيدُ صـفـاءً تـبـدّدَ
مـن بعد رَجْعتنا القَهْقرَى؟
وهـــل نسْتحقُّ عـطـايـاهُ، لمّا
تـدفّـق فـي أرضـنـا كـوثـرا؟

فَـروَّى القلوبَ، وساسَ العقولَ
ودوّن آيــاتــهِ فــي الــثـرى
وهــا هــو قــد وجِــمــتْ طـيـرهُ
ولاذت بأعشــاشها فــي الــذُّرى؟

* * *

هي:

حبيبــي تمــاسكْ، فــإنَّ الصبــاحَ
يُــحــرّكُ فينا شــعــاعَ الأمــلْ
وأنــت رجـائـي الــذي لا ســواهُ
أعيــش لــهُ، وأَراكَ البطــلْ
تـشـقُّ الــظــلامَ إذا مــا ادلــهــمَّ
وتَضــربُ للحــائــريــن المثــلْ
وتـصـبـحُ أنــشــودةَ الــقــادريــنَ

إذا ساءلوا: أين أين الرجل؟
فخذْ بيدي، قد أخذتُ يديْكَ
وصدرُكَ لا بُدَّ أن يحتملْ
وحواؤُكَ الآنَ ملْءُ وُجودِكَ
تحدو خُطاكَ، بفيضِ القُبلْ!

* * *

هو:

مشينا وثالثُنا النيلُ، هل
تريْنَ لنا الآنَ أن نرجعا؟
وأن نتوارى قُبيْلَ المساءِ!
وراءَ الظلالِ، وأن نُسرعا
وأن نستعدَّ ليومٍ قريبِ
نرى في ضُحاهُ غدًا أبشعا

وهل يرتضي النيل أن نُستذلَّ
وتُصبح فِتْنتُنا مَرْجِعا
ليقرأهُ القادمونَ الحيارى
بليلٍ بهيمٍ أتى مُفْزعا
وهل سوفَ تبقيْن يا فتنتي!
نعيش معًا، أو نموتُ معا؟

* * *

شبق

هنا، شبقٌ عالقٌ

وآخر مختبئ في جلال السكون

كلانا على طرفٍ منهما

حين نرنو بعينين نضّاحتينِ

بدمع العصاةِ

ونَشْرع في ضمةٍ تتناهى بنا

إلى ذروة للجنون

نصدُّ الذي يتدافع فينا

ويحسبه الناس جمر اشتياق عنيف، وحسْب

ولكنه يتجسَّد فينا، وينثال محتشدا

وهو يدفق فينا عُسالتهُ

ونار مجامرهِ

وارتعاش فرائص معتنقيْنِ

يذوبان في شفة كالجحيم

ويرتشفان مدًى سائلا

هَيُولَاهُ هائمةٌ في السَّديمِ

وفي فحمة الليل عند الهزيم

يُلطّفها مَرُّ هذا النسيمْ!

.....

سنعدو معا

غزاليْن في البرِّ

نبحث عن موطئ خلف ظهر الكثيب

ننام ونصحو

ونمعن في العدْوِ

يأخذنا صوت ريح المغيب

وجمرة وجه الغروب

وتحملنا رغبة عاتية

تزلزلنا

نتكسّر من تحتها راضخَيْنِ

ومستسلمَيْنِ

لما يفعل الـمَدّ والجزر فينا من الصبواتِ

وما يشعل الوقت دوما من الرغبات

وما يتبقى لدينا من الأمد الحُرِّ

في قلب هذا الفراغ الكئيبْ!

* * *

لمن صوتُ هذا الأذانِ الرهيبْ؟

تلاحقه ظلمةٌ داهمة

وتنسلُّ فيها خُطَى هائمة

على دَرجٍ صاعدٍ، مستريبْ

سنمنح أنفاسنا بُرْهةً

ونطفئ بعض اشتياقٍ

ولذْعَ احتياجٍ

نطامنُ من هَوسٍ مائجٍ

لنمتلك اللحظة القادمة

ونبسطُ ظلّين من فوقها

كائنيْنِ، مهيضيْنِ، من كوكبيْن،

تفجَّر جوعُهما للحياةِ

ولـمْسِ معارجها الفاغمة

ودوّى نشيدهما كالصراخ

يشقُّ دياجيرها القاتمة

فهل ثمَّ وقت لمعزوفةٍ حرّةٍ

تجيء على غير ما اعتاده العازفون

مقاماتها تتداخل رفعًا وخفْضا

وعدْوًا وبُطْئًا

وجذْبًا وشدًّا وإرخاء نبْرٍ،

يُجاذبنا ثم يهوي بنا في جلال السّكونْ

تَخافَتَ صوتُ الوجود،

تلاشت خُطى الكائناتِ،

تَخلْخلَ ثِقْلُ الهواءِ الـمُذابِ وراءَ الشَّتاتِ

وطار بنا،

حيث مسكنُنا في سوادِ العيونْ

يمرُّ بنا

ومِن حولنا

ويندهشون لأنغامنا

ولكنَّه..

ليس يدري بنا العابرون!

* * *

إنه زمنٌ قادمٌ

ألا ليتنا نستطيع قياس المسافةِ
بين لقاءٍ بعيدٍ نقول: هو الأولُ
وآخرَ لا نخجلُ الآنَ من قولنا:
إنه الآخِرُ
وأيُّهما يا تُرى الأجملُ؟
سنُخطئُ في العدِّ
عدِّ اللقاءاتِ
عدِّ الأماكن والأزمنة
وعدِّ سحابات صيفٍ أطلّتْ
وكانت بفُرْقتنا مؤذنة!

وها هيَ قد عَبرتْ واستدارت
ليبقى لنا نهرُنا المتدفقُ
من قبل أن يتأرجحَ عند المصبِّ
وتَعْلقَ أوشابهُ بالحواجزِ
أو بالسدودِ،
فكم مرةٍ لم نُبالِ العوائقَ
والزمن البائسَ المستبدَّ
وقلنا سنبقى مع النهرِ
نطفو، ولا نغرقُ!

* * *

لم نكدْ نتنفّسُ من لحظةٍ فاصلة
سقطت فوْقَنا
عبؤهُا هائلٌ

وشظايا دقائقها وسويعاتها

تتناثرُ من حولنا

مثلما تنزل النازلة

فلنغادرْ مكانا هو الآن من بَعْدنا

طللٌ ماثلٌ،

ولنسارع بحزْم حقائبنا

قبل أن يتبدَّد هذا النهارُ

ونسقطَ في شَركِ الوحشة القاتلة

نتشمّمُ فيه زمانا خلا

وخَلتْ من يديه الوعود

لم يعد في صباحاته من جديدْ

لم يعد في معارجه من مزيدْ!

* * *

هل نرى ما يدور بنا الآنَ؟ هَلْ!
جاء وقتُ مكاشفةٍ جارحة
كلُّ ما كان مُكْتَتمًا
صار مِلْكًا لأوراقنا
ولبوْحٍ طويلٍ
يخُفّف بعض عذاباتنا الجامحة
ولشكوى تعوّدها القلبُ بعد فوات الأوان
وانتهى لزمانٍ أتى
ليس طبعا كأيّ زمان
إنه زمنٌ قادمٌ
قد تخفّف من عبء أيامنا
وتلفُّتِنا
للذي كان في البارحة!

* * *

سعيد عقل[1]

يا شاخصًا في ذُرى الأوليمبِ تبتكر
أنـت الخلـودُ ، فمـاذا بعـدُ تنتظـرُ؟
هـذا فضـاؤك كـون كلُّـهُ عجـبٌ
أفضى له السّحر واستعصى به العُمرُ
أدمنْـت فيـه عناقيـد الـرؤى فأتـت
إليـك طوْعًـا ومـن كفَّيْـكَ تُعتصـرُ
عينـاك فجّرتـا نبعيـن مـن ألـقٍ
نجماتُـه أنـتَ فـي هالاتهـا القمـرُ
وأنـتَ فيـضُ نُبـوّاتٍ وأخيلـةٍ
تترى، وتسـطعُ فيهـا الآيُ والسُّـورُ

(1) ألقيـت في الاحتفال الذي أقامه لبنان بمناسـبة العيد المئوي لشـاعره الكبير سـعيد عقل بقاعة الأونسكو في بيروت 4 يوليو 2012.

فيضٌ مـن القبـس الأسـنى يُطوّقني
قـل لـي بربـك كيـف الآن أختصـرُ
أَرْقـى سـماءً إلـى عَلْيـاكَ أصعدُهـا
تقطعـت كلُّ أنفاسـي، ولا خبـرُ!

* * *

هنا شـموخُ بنـى هوميـر، واحدُهم
ركضٌ على الدهر، ظلٌّ ليس ينحسرُ
هامـوا بِسُـدَّتك العُليا وقد حشـدوا
حشـودهم وتماهوْا فيك وانتشـروا
وتلـك مملكـةُ الأربـاب مائجـةٌ
شـخوصُها بالبديـع الفـرد تأتمـرُ
تجمَّعـت، فلديـك الآن عِتْرتهـا
سـكْبٌ جميـل وعطـرٌ منـك منتشـرُ

فـي كلّ قـولٍ جليـلٍ منـك مائسـةٌ
مـــن الحسـان اللواتـي فيك تُدَّخرُ
جمعْتَهـا كنظيـمِ الـدرِّ عِقْـد سـنًا
لألاؤه منـك تيّـاهٌ ومقتـدرُ
تحكَّمْـت لغـةً واسـتُنفرت بِدعًـا
وزُلزلـتْ، فـكأن السِّـحر ينفجـرُ
أطلقْتَ معجزة الحرف التي عبرت
شـطّ الخلـود فضـاءً إثـره عبـروا
وأنـت فـي كلِّ يـوم صائـغ أبـدًا
معـراجَ شـعرٍ إليـه يشـخص البصرُ
كونًـا أصابعُـه فـي حِبرِهِ انغمسـت
فانثـال إبداعُـه الخـلاق ينهمـرُ
لُبنـانُ في يومك المشـهودِ عيدُ نُهًى
طافـت بـه زمـرًا مـن بعدهـا زمـرُ

إن كرّمـوك فمن سُـقياك قـد وردوا
أو بايعـوك فَعـنْ إيمانهـم صـدروا
طافـوا بك اليوم يا أغلـى مفاخرهم
حجُّوا إليك، وزاروا البيت، واعتمروا

* * *

يـا ثـورةً للجمـال الصعـب فجَّرها
عصف البيـان وذاك المرتقى الوعِرُ
سـبقْتَ جيلـكَ تيّاهـا ومقتـدرًا
يـــأيها النيِّـــرانِ: التيـــهُ والقـــدرُ
وجئْتَ تاريخنا الشـعريَّ، مصطحبا
شِـباككَ الغُـرَّ فـي أحبالهـا الظَّفـرُ
شـعر تسـامى إلى الجُلَّـى، أضاء به
فكـر تناهـى، تداعـت إثـره الفِكـرُ

هـذي مداميكـه مـن بعلبـكَّ أتـت
كأنهـا عُمـدٌ فـي الصخـر أو جُـدُرُ
كأنـه سـيرة للعطـر تحملُهـا
من قبـل أن تُخلق الأعراق والسِّـيَرُ
أشعلْت من وقْدة «البارناس» جذوته
فجـاء يسـطع فيـه الجمـر والزهـرُ
وصُغت مـن «عبقرٍ» أذكـى فُحولته
تخـوض معركـة الأسـمى وتنتصرُ
أتعبْـت نفسـك طَمّاحـا، غَوايتـه
قصيـدةُ الأرز، تُعطيهـا فتزدهـرُ
كأنمـا عنفـوانُ الشـعر تبدعُـه
خيـلٌ تحمحـمُ، والمضمـار ينتظـرُ
تشـقّ تاريـخ سـحرٍ أنـت حاملُـه
مبشـرًا بالـذي مـن بعـدُ ينتشـرُ

هـذا الجديدُ الـذي أَعطيْـتَ نكهته
سَـكبْتها لا تُبالـي، يسـقُطُ الحَـذرُ!

* * *

نحْـتٌ على الضـوءِ أم إيقـاعُ عَنْدلةٍ
وفتنـةٌ جُسّـدت، أم موعـدٌ خطِـرُ؟
رُخامـةٌ مـن أثيـرٍ، فـي تهدّجهـا
تملمـل الشـجنُ الفـوّارُ والوتـرُ
شـعر مـن النَّسـق العالـي هتفْت به
فاعشوشبتْ منه أرضٌ جادها المطرُ
يأتي شـميمَ رجـالٍ طالما شـمخوا
يُضحي شـموخَ جبالٍ، سرُّها البَشرُ
أنطقْتَ لبنان فُصحاكَ التي انبجست
مـلء الضلوع، فكان الوقدُ والشَّـررُ

زَرعْتها في بساتين الغِوى غُررًا
تلك العناقيدُ في طياتها الثمرُ
سقيْتنا ففُتِّنا من بلاغَتها
-نحن النشاوى- ومن راووقها سكروا
لم نـدْرِ هل ساحرٌ قد راح يُدهشنا
أم أنها نشوةُ السّمار والسَّمرُ؟
يا صوْتَ لبنان، يا علياء قمته
يا كرْم زحْلةَ، يا سكْبًا لمن عبروا
هبْني قليلاً من الفيء الذي عَمرت
به رؤاك فإني فيه أنغمرُ!

* * *

يا مُشعل الفتن الكبرى بثورته
أشعلْت فينا جمالاً ليس يستترُ

زينـون ينهـض في صيـدا، وفي يده
إكليـل غـارٍ زهـاهُ نفحـك العطِـرُ
يقـول يـا شـاعر الدنيـا وزينتهـا
علِّـم بشـعرك مـا لـم يعلـمِ البَشـرُ
مسـتنزلا وحيـك العُلـويَّ مـن أفق
يـكاد فينـا بعيـن الغيـب ينشـطرُ
يـا رِندلـي وعشـيق الأمـس صبوته
نـار ونـور، وجمـر ظـلَّ يسـتعرُ
علـى يديْـكَ مزاميـر لـك انطلقـت
عبْـرَ الزمـان الـذي أيامُـه غُـررُ
أوتيت حكمـةَ هذا الكون فاكتملت
أمـام عينيـك منـهُ الآيُ والعبـرُ
يـارا، وتلـك ابنتـي، أسـميْتُها ولعا
بشـعره، ثـم وافـت وهـي تعتـذر

تقـول لـي: يـا أبـي إنـي أتيـه بـه
وكلّ يـوم بـه أزهـو، وأنشـهرُ
وليـس تسـبقني فـي مصـر واحـدة
بـه تسـمّت، فبعـدي جـاءت الأُخرُ
دثَّرتني باسـمه الغالـي لديك، فهل
رأيتنـي مثلمـا جـاءت بـه الصـورُ؟
بُنيَّتـي أنـتِ بعـض مـن تصـوره
سـوّاكِ ربٌّ جليـل الصُّنْـعِ مقتـدرُ
رسْـمًا فريـدا، بيانـا شـاخصًا أبـدا
ومسـتحيلا تجلّـى، مـا لـه أطُـرُ!

* * *

سـعيد يـا لغـة للشـعر باذخـة
ميراثَ شـعر به في السـاحة ائتزروا

لـم يثْـنِ عزْمـكَ قـوم كلُّ عُدّتهـم

رجـمُ الجديد الذي من وقعه ذُعروا

حربُ الجمال وحربُ الشعرِ خُضْتهما

لـم يثْـنِ عزْمـكَ إرهـابٌ ولا خـورُ

سبعون، تسعون، طاب العمر، بل مئة

تبنـي وتهـدم، لا تُبقـي ولا تـذرُ

وقفْـتَ منتصبًـا حيـن الشّـتاتُ لهم

وحيـن عـادوا إلى دنيـاك واعتذروا

وأدركـوا أنَّ مـا شـيَّدْتَ مـن قمـم

أبقـى وأروعُ مـن كل الـذي نـذروا

نيرانـهُ التهمـت أصنامهـم فهـوَوْا

وسـحره أيقـظ الغافيـن فانسـحروا

* * *

لزهو يومك، جاءت مصر تصحبني
طابت، وطاب لها في صحبتي السَّفرُ
جاءت وفي جِيدِها طوق يُزينها
من شعرك الباسق العالي هو الدُّررُ:
«إن لم نَزِنْ مصرَ وزْنَ الحق، سالَ دمٌ
على الضمير»، وتبقى أنت والذِّكَرُ
وكيف تنكُصُ عن يوم الوفاء لمن
بشعره، تخلدُ الأزمانُ والعُصُرُ
كم جئْتَها مالئا حُلْوَ الوطاب بما
يُحرّك النيلَ من شجوٍ ويبتدرُ
تبثُّ فيها عُرامَ الشعر، يوقظها
والفجر محتجب، والليل معتكرُ
كأنّ شعرك فيها، مارجٌ لجِبٌ
وعُصبةٌ من رماح المجد تشتجرُ

فأذنْ لها أن تكون الآنَ، مصرُ، معي
قريبـةً منـك حيـث السـمعُ والبصرُ
تقـول همسًـا، لعـلَّ الجاهليـن بنـا
لا يسـمعون كلامًـا خطَّـه القـدرُ
الشـوق طـال بنـا، والتّـوْقُ جمّعنـا
وكلّ عشـقٍ إذا مـا طـال يختمـرُ
لبنـانُ أنْـتَ، وتبقـى بيننـا أبـدًا
يسـمو بك الشـرق مزهـوًّا ويفتخرُ

* * *

ظعائن ليلٍ أجرد

لا تسألوا، فلن يجيبكم أحد. هذه الريح السوداء المعلقة فوق رؤوسنا، لا تتقدم ولا تتأخر، لكأنها تفكر في السقوط علينا، وصبْغ هذا الفضاء كلّه بالسواد. هل نغادر إذن؟ بحثًا عن كهف آمن، أو أنبوب ضخم نتوارى فيه، قبل أن تسّاقط هـذي الريح شـظايا أو شـررًا متطايرًا أو كِسـفًا صغيرة من الليل! تحطّ فوق صدورنا، وتجعلنا لا نتنفّسُ إلا بصعوبة. نتنفـس هذه المـادة الزيتية اللزجة، معجونة بالسـمّ الناقع، كأنها شواظ بركاني يشوي بلهيبه كلَّ ما يصل إليه، ويحرق كلَّ ما هو أخضر في مسيل جمره!

* * *

يـا أيتهـا السـموات البعيـدة، العتيـدة، أَمطـري علينـا، أسـقطي مـن مائك مـا يبعثر هذه الريـح السـوداء، اجعليه يغسل جباهنا، وقد ينجح في غسْل حنايانا من رطوبة قاسية وغبار متجمع. ملاذنا الآن أنتِ. لا بحر ولا نهر ولا ينبوع. ليس إلا سـرابٌ قاسٍ لامعٌ، وهوادجُ تهتزُّ - أمام عيوننا - فـوق نُوقٍ مكـدودة، أجهدها الإبحار فـي قلب الصحراء، وأدماهـا حشـفٌ جافّ توغـل فيه، وذوائب طلع شـوكي، تمدّ أعناقها إليه، سـعيًا إلى مأكل أو مشرب، فترتدُّ حسيرة معتلّة، يقتلها الظمأ، ويفتك بها السغب، ويتأكّلها القتاد!

* * *

يـا ظعائـن هـذه الهـوادج غنّيـن، تمايلـن فـي أعطـاف هوادجكن يمْنة ويسرة، وأمامًا ووراء. لعلَّ اهتزازكن يُنسي رواحلنا أوجاع السُّرى وعذابات الوخْد الدامي، ويجعلها تهتـزُّ بدورهـا على إيقـاع حركاتكـنّ. الغناء حتـى لو كان حزينًا وتعيسًـا يردّدهُ صوت الحادي الأكثر حزنًا وتعاسـة، كفيل بأن يجعلكن تسْتروحن هدهدة الإيقاع، ورواحلكنَّ

تحلم كما صورها المعري - فيلسوف الشعر العربي- بأنها تمارس جِذابها لـ «**ذوائب طلْح بالعقيق وضالِ... فأنشدْنَ من شعر المطايا قصيدة* وأودعنها في الصبر كلَّ مقالِ**». هلمي يا ظعائن ويا رواحل، إياكن أن تتطلّعن إلى الصحراء اللافحة الممتدة، والفيافي التي يغيب فيها الصوت دون صدى، لا تحاولن اختلاس نظرة من داخل هوادجكنّ إلى الفضاء الذي لم يعد يُشاهد سواه، فضاء أصفر، داكن، شاحب، عابس، يفضي إلى فضاء، ونهار يُسْلم إلى ليل، وليل يودي بكنّ إلى نهار، ووطءٌ في هذه الصحراء اللاهبة القاسية، ولا عين ماء!

* * *

يا ظعائن وادي الغضى، لي بينكن ظعينة مسافرة، ظعينة واحدة تعلّقها قلبي منذ الصبا واليفاعة، فغادرني، واستقرّ في هودجها، إلى جوارها، يكاد يلامسُ موطئَ قدميْها، رفيقًا وحارسًا ومؤنسا، يلمسها لي، ويضمُّ أملَدها لي، ويكلّم جمالها باسْمي، وينطقُ بكلِّ ما عجزتُ عن توصيله إليها.

ارفقن بها يا سرب الظعينات، ولا تكنّ ثقيلات الوطأة عليها، فهي خفيفة كالنسيم، شفافة كالضوء، ناعمة مصقولة كالعاج، ملفوفة كنخلة عراقية سامقة مباهية، هفهافة كموجة عطر فاغم محمّل بالياسمين، صافية كزرقة سماء ليلة قمرية ساجية، عذبة كقصيدة شعرٍ أبدعها عاشق بدويّ.

اربِتْن عليها، وهدهدْنها لأجلي، أنا المتيم بها، الضارب في الفيافي وراءها ألتمسُها عند منابع الماء، وفي ثنيّات الوادي ومنعطفاته، وأُحمِّل الريح صوتي لعله يصل إلى سمعها حيث تكون، أنا المقتول ظمأً يفوق ظمأها للماء والطعام، وهيامًا أشدَّ من ذكَر الإبل حين تُقْصَى عنه ناقته ووليفته فيصبح لتحنانه صوت يرجُّ الفضاء، وهديرٌ يُدوّي في الخلاء، وشوقًا أقسى من الشوك الذي تتعاطاه نُوق القافلة، وحريقًا يشوي كبدي ويفْريه، لا تعرفه قلوبكن الحرّى وأكبادكن المحترقة!

* * *

هـل يُشـبه ليـلُ قاهرتـكَ المكفهـرّ الغاضب، ليْـلَ هذه الصحـراء الجـرداء القاسـية؟ وهـل يضيق صـدرك بلفح هوائها الثقيل المشبع بالرطوبة وأنت تُخوّض فيه وتجفّف جبينـك الـمُبْتـلّ بيـن حين وحيـن، وتهرول في إثـر قافلة تصبّـاك واحـد مـن هوادجهـا بما يحملـه من لؤلـوة يتيمة وجوهـرة مكنونة؟ لعلـك تحاول الآن إزاحـة هذا الزحام الضاغط عن يمينك ويسـارك، وتسـارع في شقّ طريق لك ينجيك من قيظ لا يرحم، وعيون جوعى مقتحمة، ومطبّاتٍ قبيحة مباغتة.

هـا، فتش فـي جيبـك عـن مفتاحـك، فالبيـتُ اقترب، وسوف يضمُّك هذا المأوى بعد قليل. أدخل مفتاحك في باب البيت وحاذر أن ينكسـر المفتاح. فكّرْ، سيكون الباب مغلقًا عندئذٍ، ويكون الشـارع مأواك، إلى أن تأتيك النجدة ممـن يملك مفتاحًا للبيت كمفتاحك. سـاعتها لن تحتمل اللوم أو السـخرية أو سـيل الأسـئلة المتلاحقـة عن كيفية كسـر المفتاح، ولماذا يخطر لك دومًا أن المفتاح سينكسر ذات يـوم؟ فكّـر كيـف تواجـه هـذا الموقف، وتكـون قد

اتخذت أُهبتك لحدوثه، حتى لا تباغتك المفاجأة الكريهة بموقف بغيض، لا أظنك تتمناه لغيرك، حتى لو كان من أشدّ الثقلاء!

* * *

ليلٌ ساجٍ، وسماء ذات أبراج، وهدوء خادع يغمر ما حولك، وبقايا أنوار خافتة، تنطفئ واحدًا بعد الآخر، على مسافات زمنية متباعدة. لعلَّ المشهد يُفكّكُ من توتّرك، أو يضاعف من شدّة إصغائك، أو ينسيك عناء يوم تبدّد عبر الشوارع والأزقّة والأرصفة والمطبات المتلاحقة، وأنت تُمسك نفسك عن الصراخ أو القذف بشتائم غير معهودة منك، وإن كانت أقلّ سوقيةً بكثير مما ينفجر به سِفْلَةُ هذي الأيام. هذا جوٌّ يغريك الآن بأن تصطاد اللحظة، هل أُعلّمك كيف؟ أمسك قلمك، مثل سلاح قد شهرْته لمن يقطع عليك طريقك. أحضر أوراقك البيضاء الخالية من الأسطر، فضاؤها الأبيض يغريك بأن تنزلق عليها بكلام سوف يواتيك، سوف يوافيك، وكأنه قد راح

يناديك، من غير أن يعوقك سطر يتلوى من تحت الكلام. أصْغِ له، وتأمّل، ثم اكتب ما طنَّ بأذنيك، وما زنَّ حواليك، شيءَ كالهمس، سيرتفع الهمس قليلا، يصبح نبرًا أوضح، يصبح لغةً عالية، وحديثًا يسمعه من لسْتَ حريصًا أن يسمعك وأنت تقول. فتأمل حالك بعض الوقت، يجيء كلام ويغيب كلام. يومض، يبرق، يمضي، ينطفئ سريعًا، لن يرجع مهما حاولت. أنت تلكأتَ فضاع وكان جديرًا أن تلحقه، أن تتشبث به، تمسك بالحرف وراء الحرف، تُسجِّله في اللوح الأبيض من صفحتك المتهيئة لك، حتى تملأها، وتسّود وجهًا منها، ويسيل المعنى من قلب الألفاظ المنهمرة والمحتدمة. ساعتها، تذكر وجه حبيب غاب، ووجه ظلامٍ حلَّ، وتوشكُ أن تبكي...

* * *

هلموا يا رفاق، هلموا يا أحباب، أعينوني على هذا الوقت الصعب، وهذا الزمن المختلّ. هيا، سيروا، حتى نكتشف معًا أولى عتبات طريق تسلكه قافلة ملأى بظعائن

مـن صنـع خيـالٍ يفتـرش الأرض، ويُقعي فـي الظلمات، ويرحـل بعض الوقت، ويأتي حين تضيق الحال، ولا يبقى منـه - إن جـاء - سـوى أطياف ذاهلـة وفضاء أجـرد. أنتم مثلي محتاجون لمثل خيالي، حتى تتوازن أركان الأرض، وتتّسـق فضاءات الدنيـا، ويصير الحـال الطالح أجمل في أعيننا. ساعتها نحتمل الغِلْظة، والعقل المظلم، والكلمات الجوفاء. هيا، سـيروا، حتى تكتظ الدنيا بحقائبنا المحشوّة بخرافـات عـن قـوم كانوا، وحضـارات قامت، وشـعوب بـادت، وأكاذيب تناولها سـبّاك القوم ليصنـع منها تاريخًا وحياة وأناشـيد بطولة. ألقوا بحقائبكم - إن شـئتم - فهي ثقيلـة، قد تخرج منها حيات أكلَتْ من بعض لفائفها، حتى بَشمتْ، فسعت في الأرض فسادًا، ثم انسلّتْ. بيت تسكنه الحيـات مخيف حتى الموت، حتى لو أصبح بيتًا للشـعر، تعيـث بـه الحيـات وتهـوي فـوق رؤوس الشـعراء. هيا يا أصحـاب ويا أحبـاب، الدنيـا مازالت أرحـب، والأعمار قصيـرة. فلنملأ سـلّات العمـر ببعض ثمـار الدنيا وقطاف

الفاكهة، وغرس يُثمر في أيام قادمة، قد لا نلحقه نحن، ولكن يتشهّاه الأبناء أو الأحفاد، فهيّا!

* * *

أسمع أقدامًا تتلكأ وهي تنوء وتثّاقل في الأرض. سقط الإيقاع وضاع الحبلُ السُّرِّي، وغابت ملء أزقتها الهمساتُ، وجاء زمان للأصوات الصاخبة، وللأفعال المنكرة، وتحطيم موازين الأشياء. قيل: انتشروا، فتعثر قوم في قوم، وارتبكت ثَمَّ فرائصُ مذعورة. هل يدري الناس بأنّ سبيلا معوجًّا يغريهم بالسيل المعوجِّ، فيُخرس أنفاسًا، ويضاعف من شكوى مقموعين، ومذعورين، ومنتظرين بلا أمل يأتي، أو بعض رجاء؟

* * *

أَحْكِمْ إغلاق الباب، وبادر بالنوم إن اسطعْتَ، فلن يأتيك النوم وأنت تحدّقُ فيما حولك من أشباح تتراقص، وهواجس وهي تفحُّ وتنفخُ في أركان الغرفة لفْحَ سعيرٍ

تتقلّبُ فوقه. لا وقت الآن لشيء آخر أو حتى لهروب من رعب ماثل، لا عزم تبقّى أو طاقة. يأخذك الإجهاد وتسحبك الموجة للقاع، القاع البارد يغريك بأن تتوسّده، وتظلّ تُحدّق نحو الأعلى، والأعلى ظلُماتٌ تعلوها ظلمات، طبقاتٌ تتلوها طبقات، أَغْمِضْ عينيْك، وحدّق في ليل الرحمة!

* * *

صدر للشاعر

(أ) مجموعات شعرية:

1- إلى مسافرة (الطبعة الأولى 1966).
2- العيون المحترقة (الطبعة الأولى 1972).
3- لؤلؤة في القلب (الطبعة الأولى 1973).
4- في انتظار ما لا يجيء (الطبعة الأولى 1979).
5- الدائرة المحكمة (الطبعة الأولى 1983).
6 - لغة من دم العاشقين (الطبعة الأولى 1986).
7- يقول الدم العربي (الطبعة الأولى 1988).
8 - عشرون قصيدة حب (الطبعة الأولى 1989).
9 - هئتُ لكِ (الطبعة الأولى 1992).
10 - سيدة الماء (الطبعة الأولى 1994).
11- وقت لاقتناص الوقت (الطبعة الأولى 1996).
12 - وجه أبنوسي (الطبعة الأولى 2000).
13 - الجميلة تنزل إلى النهر (الطبعة الأولى 2003).
14 - الأعمال الشعرية في مجلدين (الطبعة الأولى 2004).
15- أحبك حتى البكاء (الطبعة الأولى 2005).
16- موال بغدادي (الطبعة الأولى 2006).
17- ربيع خريف العمر (الطبعة الأولى 2008).
18- النيل يسأل عن وليفته (الطبعة الأولى 2009).
19- وجوه في الذاكرة (الطبعة الأولى 2010).
20- الرحيل إلى منبع النهر (الطبعة الأولى 2012).
21- أبوابك شتَّى (الطبعة الأولى 2013).

(ب) دراسات ومختارات:

1- كلمات على الطريق (الطبعة الأولى 1969).
2- لغتنا الجميلة (الطبعة الأولى 1973).
3- أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي (الطبعة الأولى 1973).
4- لغتنا الجميلة ومشكلات المعاصَرة (الطبعة الأولى 1979).

5- العلاج بالشعر (الطبعة الأولى 1982).
6- مواجهة ثقافية (الطبعة الأولى 1982).
7- أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي (الطبعة الأولى 1983).
8- عذابات العمر الجميل (سيرة شعرية) (الطبعة الأولى 1992).
9- ثقافة الأسلاك الشائكة (الطبعة الأولى 2000).
10- زمن للشعر والشعراء (الطبعة الأولى 2001).
11- الشعر أولاً والشعر أخيرًا (الطبعة الأولى 2002).
12- الإغراء بالقراءة (الطبعة الأولى 2003).
13- جمال العربية (الطبعة الأولى 2003).
14- أصوات شعرية مقتحمة (الطبعة الأولى 2004).
15- هؤلاء الشعراء وعوالمهم المدهشة (الطبعة الأولى 2005).
16- غريب الوجه واليد واللسان (الطبعة الأولى 2007).
17- في حضرة مولاي الشعر (الطبعة الأولى 2007).
18- جمر الكتابة (الطبعة الأولى 2010).
19- لغتنا الجميلة (خمسة مجلدات 2010).

(جـ) تقديم وتحقيق ودراسة:

1- معجم أسماء العرب (بالاشتراك) (الطبعة الأولى 1991).
2- سجل أسماء العرب (بالاشتراك) (الطبعة الأولى 1991).
3- مختارات من شعر العقاد (الطبعة الأولى 1996).
4- ديوان عبد الرحمن شكري (الطبعة الأولى 2000).
5- ديوان عبد الحميد الديب (الطبعة الأولى 2000).

(د) شعر للأطفال:

1- حبيبة والقمر (الطبعة الأولى 1998).
2- مَلَك تبدأ خطوتها (الطبعة الأولى 2002).
3- حكاية الطائر الصغير (الطبعة الأولى 2002).
4- أغنية لمصر (الطبعة الأولى 2004).
5- الأمير الباسم (الطبعة الأولى 2005).
6- أصدقائي الثلاثة (الطبعة الأولى 2007).
7- حمزة (الطبعة الأولى 2012).

فهرس القصائد

7

ينفجر الوقت 7

الغربان 15

هي لي 24

أغنية على النيل 42

سوانح ريفية 51

سيرينادا مصرية 62

شبق 68

إنه زمن قادم 74

سعيد عقل 78

ظعائن ليل أجرد 90

صدر للشاعر 101

مكتبة نوميديا

أحلمُ أن أسير فيكِ يا مدينتي

يدي تطوّق المساء في برودة الخريف

صدري ينوء بالأحلام،

في دَوَّامة العطور والألوان

وخطوتي تنداحُ في الأزقة

لتلتقي بغيرها في زحمة الميدانْ

ويصبح الجميع واحدًا

أصواتهم عفيَّةٌ كأنها ترنيمة فَتِيَّة

تضجُّ بالهتاف والألحان

(من قصيدة: ينفجر الوقت)

9 789774 278747

الدار المصرية اللبنانية